الفصل التمهيدي

ظهور واتساع دولة الكانم البرنو

أ) موقع دولة الكانم والبرنو

ب) العناصر السكانية في الدولة

ج) تأسيس دولة الكانم والبرنو

د) مرحلة سيادة كانم

هـ) مرحلة سيادة برنو

أ / موقع دولة الكانم والبرنو

لقد أطلق العرب على المنطقة الممتدة جنوب الصحراء فيما بين بلاد الحبشة شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً أسم بلاد السودان[1] وقد نقل هدا المصطلح عنهم بعض المؤرخين الأوروبين [2]فهذه المنطقة تقع بين منطقة الصحراء في الشمال ومنطقة الغابات الاستوائية بوسط أفريقيا في الجنوب, ونظراً لامتداد هذه المنطقة على رقعة جغرافية كبيرة, ولتنوع العناصر البشرية في هذه المنطقة فقد قسمها المؤرخون إلى ثلاثة أقسام هي :

1) **السودان الغربي** : ويمتد من نهر النيجر شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً, وقد ظهرت في هذا الجزء الممالك المعروفة في السودان الغربي مثل غانه ومالى وصنغاى .

2) **السودان الأوسط** : ويمتد من نهر النيجر غرباً إلى منطقة كردفان شرقاً وأبرز دولة قامت في هذه المنطقة هي دولة الكانم والبرنو التي نشأت حول بحيرة تشاد[3].

---

[1] لقد ورد مصطلح السودان عند كثير من المؤرخين والجغرافيين العرب القدامى منهم المقدسي الذي قال " أن السودان تتاخم هدا الإقليم ومصر من الجنوب ، وكذلك أبن خلدون الذي قال " والسودان أصناف وشعوب وقبائل ، أشهرهم بالمشرق الزنج والنوبة يليهم الزغاوة ويليهم الكانم ويليهم من غربهم كوكو ويتصلون بالبحر المحيط " أنظر ــ شمس الدين أبوعبدالله المقدسي ــ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ــ ط 2 ــ ليدن " د . ت " ص 341 ، وعبدا لرحمن بن خلدون ــ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من دوى السلطان الأكبر ــ بيروت ــ دار الكتب العلمية ــ 1992 م . جـ 6 . ص 235

[2] – P.M .holt ,M.dlay .A history of the Sudan from the coming of Islam to the present day – London-1988-p1

[3] –يؤكد هدا ماذكره العمرى من أن كانم تجاور بلاد النوبه وبينها وبين بلاد مالي مسافة بعيدة جداً ــ انظر : شهاب الدين أحمد بن يحي العمرى ــ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ــتحقيق : حمزة أحمد عباس –ابو ظبي – المجمع الثقافي – 2002 – ج2 –ص95

3) **السودان الشرقي** : ويمتد من منطقة كردفان إلى هضبة الحبشة, وقد شهدت هذه المنطقة قيام ممالك النوبة المسيحية والإمارات الإسلامية على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر[1]

إذاً تقع دولة الكانم والبرنو ضمن ما أصطلح على تسميته بالسودان الأوسط وقد ظهرت هذه الدولة حول بحيرة تشاد[2], ولعل خصوبة المنطقة المحيطة بالبحيرة وموقعها كمركز هام لتجارة القوافل كانت من الأسباب التي جعلتها القاعدة الرئيسة للدولة .

يجب أن نعترف في البداية بأن محاولة التعرف على حدود هذه الدولة بدقة هي مهمة صعبة وذلك للأسباب التالية : ــ

1 ــ تشابه المظاهر الجغرافية للمنطقة, فمنطقة بحيرة تشاد تعد امتداداً للصحراء الكبرى فهي "تتميز بخلوها من المظاهر التي يمكن أن تقوم كحدود طبيعية لها" [3] لذلك تداخلت حدودها مع بلاد النوبه في الشرق وبلاد الهوسا في الغرب ومناطق جنوب الصحراء في الشمال .

2 ــ من الطبيعي أن يخضع اتساع هذه الدولة للظروف السياسية التي مرت بها فقد امتدت هذه الحدود شمالاً لتشمل جهات من فزان وبعضاً من مناطق النوبه وبلاد الهوسا, بينما انكمشت أحياناً أخرى لتقتصر على المناطق المحيطة بالبحيرة، فتباين شخصيات العناصر الحاكمة كان له دور في تحديد الرقعة الجغرافية للدولة بمعنى أن اتساع هذه الدولة وانكماشها كان انعكاساً لقوة من يملكون زمام الأمور بها، ففي عهد الماى دونمه دباليمي[4] " 490 ــ 545 هـ / 1096 ــ 1150 م "

---

[1] - أنظر الخريطة في شكل رقم 13 في ملحق الرسالة

[2] - Phyllis M. Martin, Patrick O'Meara-Africa-London-British library-1995 – P82.

[3] بوفيل ــ تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ــ ترجمة : الهادى أبولقمة ، محمد عزيز بنغازى ــ جامعة قار يونس ــ 1988 ــ ص 364 .

[4] دونمه دباليمي من اشهر سلاطين دولة كانم ، حيث وصل عدد جيشه إلى مائة ألف من الفرسان ومائة وعشرون ألف من الجنود ،وقد قام هذا الماي بدور كبير في نشر الإسلام ونجح في توسيع حدود = = = = الدولة حتى شملت بعض مناطق الهوسة واقليم فزان، وقد أدى فريضة الحج مرتين ومات غرقاً في البحر الأحمر " سفرمة عمر بن عثمان ــ ديوان سلاطين الكانم والبرنو ، نشر (Deirk Lange –chronologie-Et Historie P,un Royaume African –Franz Steiner Verlag – Gmbh- Wiepaden- 1977), P 32.

على سبيل المثال وصلت الدولة إلى منطقة فزان شمالاً, وإقليم دارفور شرقاً, والمناطق المتاخمة لبحيرة تشاد من الجنوب ولم تذكر لنا المصادر الحدود الغربية لهذه المملكة بدقة[1].

3 ــ إن الفترة التي ظهرت فيها هذه الدولة لم تكن أفريقيا قد عرفت فيها الحدود السياسية الموجودة في الوقت الحاضر, حيث كانت حدود الدول تتداخل بشكل كبير نتيجة للظروف السياسية والعسكرية لهذه الدول بسبب الهجرات البشرية من مكان إلى آخر, وهذه الهجرات تؤثر بالتأكيد على التكوين السكاني للمنطقة، لهذه الأسباب تبدو مهمة التعرف على حدود هذه الدولة بدقة مهمة صعبة, ولكننا سنحاول التعرف على هذه الحدود استناداً على الإشارات الواردة في المصادر القديمة .

يذكر البكرى إن كانم امتدت وراء صحراء زويله [2]، ولا يكاد أحد يصل إليها[3]، كما يذكر أن الحدود الغربية لهذه البلاد عند نهر النيجر وأنها ضمت قسماً من بلاد الهوسا, والبكرى هنا لم يحدد الحدود الشمالية لدولة الكانم بأحد المعالم البارزة بل أكتفي بالقول أنها امتدت وراء صحراء زويله, كما عبر عن المسافة الشاسعة بين زويلة وبلاد كانم بقوله " ولا يكاد أحد يصل إليها ", أما الحدود الغربية لكانم فقد امتدت حتى نهر النيجر وهو تحديد دقيق, ولكننا نفهم منه خضوع أغلب بلاد الهوسا لدولة كانم وهو مالم يحدث بشكل دائم بل حدث في فترات القوة لدولة كانم , والمرجح هنا أنها كانت تضم أجزاء من بلاد الهوسا .

---

[1] – يذكر البكري ان بلد كانم وراء صحراء زويلة ولا يكاد أحد يصل إليهم ، ولم يتحدث عن الحدود الغربية والجنوبية والشرقية بدقة ، أنظر :–أبو عبيد الله البكرى ــ المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ــ بغداد ــ مكتبة المثنى ــ 1907 ــ ص 11 .

[2] –زويله : تقع مقابل أجدابيا في البر بين بلاد السودان وأفريقيا ، وهى أول حدود بلاد السودان ، ومن بلد زويله إلى كانم أربعون مرحلة ، وهم وراء صحراء من وراء بلاد زويله " ياقوت الحموى ــ معجم البلدان ــ بيروت ــ دار صادر ــ 1977 ــ جـ 3 ــ ص 160 .

[3]- البكرى ــ المصدر السابق ــ ص 11 .

أما الدمشقي فيجعل بلاد كانم تمتد حتى تتصل بنهر النيل حيث يوجد الأحباش[1]، فالدمشقي يكتفي بذكر الحدود الشرقية لدولة كانم ويعدها تمتد حتى نهر النيل, وقد انفرد الدمشقي بهذه المعلومة فلم يذكر غيره من المؤرخين أن حدود كانم وصلت إلى نهر النيل, والحقيقة أن الحدود الشرقية لهذه الدولة لم تصل إلى نهر النيل حتى في أقصى فترات اتساعها .

من المؤرخين الذين أشاروا إلى بلاد كانم الأدريسى حيث ذكر في حديثه عن سكان أنجيمى أنهم يجاورون النوبه من جهة الشرق, وبين مدينة أنجيمى والنيل ثلاثة أيام[2], ولا ندرى سبب الالتباس الذي وقع فيه الأدريسى عندما ذكر أن أهل كانم يجاورون النوبه من جهة الشرق فالمتفق عليه أن بلاد كانم تقع إلى الغرب من بلاد النوبه وبالتالي فأهلها يجاورون النوبه من جهة الغرب وليس الشرق ولعل مصدر العمرى أكثر دقة من بقية المصادر القديمة في ذكر حدود بلاد كانم حيث قال : " أن كانم تجاور بلاد النوبه, وبينها وبين مالى مسافة بعيدة جداً [3] " ولم يكتف العمرى بهذه الإشارة العامة بل حاول تحديد هذه الدولة فأوضح إنها تبدأ من ناحية مصر ببلدة زلا [4]شمالاً وتنتهي حدودها ببلدة كاكا في الجنوب كما تحدها دنقلة [5] من الشرق، وتقع مملكة أفريقيا شمالها ويوجد في الجنوب كفار السودان .

---

[1] -شمس الدين أبى عبدالله الدمشقى ــ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ــ ليبزج ــ 1923 ــ ص 241

[2]- أبوعبدالله محمد الأدريسى ــ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ــ الجزائر 1957 جـ 1 ــ ص 29

[3] –العمرى ــ مصدر سابق ــ جـ 3 ــ ص 490 .

[4]- زلا : تقع في منطقة المغرب الأدنى" قرب ودان " وحيث أن الثابت تاريخياً أن دولة الكانم لم تصل إلى هده المنطقة . فالمرجح أن المقصود هنا زويله التي تقع جنوب فزان ضمن مناطق خضعت لسيطرة كانم في بعض الفترات .

[5]– دنقله :تقع في غرب النيل وعلى ضفته ومنه شرب أهلها وأهلها سودان ، لكنهم أحسن الناس وجوها ، وأجملهم شكلا وطعامهم الشعير والدرة والتمر " أنظر الأدريسى ــ المصدر السابق ص 37 = = = لمزيد من التفاصيل أنظر / كرم الصاوى – ممالك النوبه في العصر المملوكى – رسالة دكتوراه غير منشورة معهد البحوث والدراسات الأفريقية – جامعة القاهرة – 1991 م .

لقد حاول العمرى الاعتماد على معالم ثابتة في تحديد حدود الدولة خاصة من نواحي الشمال والشرق والجنوب, وتتمثل هذه المعالم في المدن التي ذكرها, ويؤكد الحموى ماذكره العمرى من خضوع المناطق الجنوبية من المغرب الأدنى لدولة الكانم في بعض الفترات حيث يذكر أن سلطان كاوار[1] في طاعة ملك الزغاوة [2] وربما كانت جهود سلاطين كانم في التوسع شمالاً يهدف إلى ضمان استمرار المبادلات التجارية مع المناطق الشمالية وتأمين طرق القوافل ،أما ابن خلدون فيؤكد ماذكره العمرى حول الحدود الشرقية لدولة كانم حيث يذكر أن بلاد الزغاوة تتصل بأرض النوبة, وأن هذه البلاد كانت تتبع الكانم [3] .

إن أول ما نلاحظه من إشارات في المصادر القديمة حول موقع بلاد الكانم هو نقص المعلومات في هذه المصادر فيما يتصل بالحدود الجنوبية للدولة, فاغلب المصادرلم تشر إلى الحدود الجنوبية, وحتى العمرى الذي حاول تحديد موقع البلاد بدقة, وذكر مدينة كاكا قد أنهى العبارة بما يوحي بغياب المعلومة الدقيقة حيث قال: " وفي الجنوب كفار السودان "[4] ونتيجة لغياب هذه المعلومات حلت الصورة الأسطورية النابعة من الخيال محل الحقيقة التاريخية لإشباع الرغبة الإنسانية في معرفة المجهول، وقد استندت هذه الصورة علي روايات شفوية غلب عليها الطابع القصصي الأسطوري, ولا يمكن لهذه الروايات أن تصمد أمام الحقائق التاريخية, فالمعروف أن منطقة الغابات الاستوائية المتاخمة لبلاد الكاتم من الجنوب تسكنها

---

[1] -كاوار : ناحية واسعة في جنوب فزان بها مدن كثيرة فيها قصر عيسى وأبو البلماء وألوان أهلها صفر يلبسون الصوف ، وفي بلادهم أسواق ومياه جارية ونخل كثير ولهم سلطان في طاعة ملك الزغاوة " الحموى ــ المصدر السابق ــ جـ 4 ، ص 432 .

[2] – الحموى ــ المصدر السابق ــ جـ 4 ، ص 432 .

[3] - ابن خلدون - المصدر السابق - جـ 1 - ص 43 .

[4] – العمرى ــ المصدر السابق ، جـ 3 ــ ص 490 .

مجموعات من الزنوج الذين لا يختلفون في أشكالهم وقدراتهم الجسمية عن بقية البشر.

نخلص مما سبق ذكره من إشارات وردت في المصادر القديمة حول موقع بلاد الكانم إلى غياب التحديد الدقيق لهذه البلاد للأسباب التي ذكرناها, ولكننا سنحاول من خلال هذه الإشارات المتفرقة أن نضع تصوراً لموقع هذه الدولة والمناطق التي خضعت لها مع الاعتراف بأن هذا التصور ليس ثابتاً في كل المراحل التي مرت بها الدولة فحدود هذه الدولة تتسع وتنكمش وفقاً للظروف السياسية التي تمر بها .

لقد اتفقت المصادر والمراجع على أن مهد دولة الكانم والبرنو هو منطقة بحيرة تشاد حيث تتوسط البحيرة قلب الدولة وهى موقع هام لالتقاء طرق القوافل المارة عبر أفريقيا وتعد صحراء جنوب فزان أقصى ما وصلت إليه دولة الكانم, ولاشك أن هذه الحدود تتداخل أحياناً بفعل غزوات ملوك الكانم ناحية الشمال وبفعل الهجمات التي تقوم بها قبائل الطوارق [1] والتيبو[2] خلال فترات ضعف دولة الكانم أما من الناحية الجنوبية فحدود هذه الدولة تصل إلى مناطق الغابات الاستوائية بينما تتصل من الناحية

---

[1]- الطوارق : جاء الاسم نسبة إلى قبيلة ترغا الصهناجية ويسمون أحياناً بالملثمين وعاش الطوارق يجوبون الصحراء الممتدة بين الساحل المغربي وبلاد السودان والطوارق يرجعون نسبهم البعيد إلى حمير " للمزيد من المعلومات أنظر أبن خلدون ــ المصدر السابق ــ جـــ 6 ــ ص 110 . وعبدالرحمن السعدى تاريخ السودان ــ نشر هوداس ــ باريس 1898 م ص 25 .

[2] –التيبو : من القبائل ذات الأصول البربرية التي استقرت في جبال تيبستى وقد عرفوا أحياناً باسم (التيدا)وقد هاجرا التيبو إلى منطقة بحيرة تشاد خلال القرن الخامس والسادس " الحادي عشر والثاني عشر " أنظر " إبراهيم طرخان – إمبراطورية البرنو الإسلامية –القاهرة–الهيئة المصرية العامة للكتاب– 1975م ــ ص 28 .

الشرقية ببلاد النوبة [1]، وتتداخل حدودها من الناحية الغربية مع بلاد الهوسا لقد جعل هذا الموقع المتوسط بلاد كانم حلقة وصل بين منطقة السودان الغربي والشرقي وبين مناطق الصحراء في الشمال ومناطق الغابات الاستوائية في الجنوب مما جعل هذه الدولة تلعب دوراً مؤثراً في الحياة السياسية والاقتصادية في منطقة السودان الأوسط [2]، حيث كانت هذه الدولة معبراً للمؤثرات الدينية والسياسية من الشمال إلى الجنوب، كما أسهمت هذه الدولة في نشر الإسلام في المناطق المتاخمة لها من الجنوب, ومن جهة أخرى فإن حركة هجرات القبائل عبر أراضى الكانم والبرنو قد جعلها تتشكل من عدة عناصر سكانية مما أدى إلى تنوع المظاهر الحضارية في المنطقة .

ب .العناصر السكانية في دولة الكانم والبرنو

لقد تميزت دولة الكانم بموقع متوسط يسيطر على طرق التجارة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب, كما امتازت منطقة بحيرة تشاد بخصوبة أرضها وخلوها من العوائق الطبيعية, ولاشك أن هذه المميزات الجغرافية كان لها علاقة وطيدة بالتكوين السكاني في المنطقة حيث قصدتها منذ القدم مجموعات بشرية اختلطت مع سكانها الأصليين, بحيث لم يعد هناك جنس نقى محتفظ بصفاته الأصلية[3].

---

[1] –العمرى ــ المصدرالسابق جـ 3. ص 490، أبن خلدون –المصدر السابق ــ جـ1 ــ ص 43

[2] – مما يدل علي مكانة هذه الدولة ما ذكره محمود كعت من ان سلاطين الدنيا اربعة سلطان بغداد وسلطان مصر وسلطان برن وسلطان ملي ، انظر : محمود كعت – تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش واكابر الناس – باريس – طبع هوداس – 1964 – ص 38 .

[3] - لقد عبر الوزان عن هدا الاختلاط بقوله " ومهما اختلفت مظاهر الأفارقة البيض والسود فإنهم ينتمون تقريباً إلى نفس الأصل " كما يقول في مكان أخر " وعندما أمن العرب أصبحوا مواطنين بهده البلاد ممتزجين بالأفارقة– الحسن بن محمد الوزان ــ وصف أفريقيا ــ ترجمة أحمد صبحى ، = = = = محمد الأخضر ــ بيروت ــ دار الغرب الإسلامي– 1983 ــ ص 35 ، ص 41 . أنظر أيضاً : إبراهيم طرخان ــالمرجع السابق . ص 19 .

إن أبرز الروابط التي ربطت بين هذه القبائل ووثقت علاقاتها الاجتماعية هو رباط التزاوج, كذلك فإن اندماج القبائل بشكل ملحوظ قد يكون من آثار الشعور بالمصلحة المشتركة في الدفاع عن هذه المنطقة المستهدفة من الغزاة, ولعل أول ما يلاحظ الباحث في التكوين السكاني لهذه المنطقة, وحركة الهجرة منها وإليها هو أن أغلب الهجرات جاءت من الشمال والشرق حيث وصل إليها عدد كبير من الكوشيين خلال القرن الرابع الميلادي على أثر الفتح الأكسومى لبلاد كوش[1]، كذلك كانت هذه المنطقة مقصداً لكثير من القبائل القاطنة في الشمال, ويمكننا تفسير اتجاه الهجرات من الشمال إلى منطقة بحيرة تشاد بدوافع اقتصادية تتمثل في ازدياد ظاهرة الجفاف تدريجياً في منطقة الصحراء, واضطرار سكانها إلى البحث عن أرض خصبة ومياه وفيرة . وكانت أقرب منطقة تتوفر فيها هذه المقومات هي منطقة بحيرة تشاد, لذلك اتجهت قبائل الصحراء للاستقرار فيها, ولعبت هذه القبائل دوراً ملموساً في قيام دولة الكانم والبرنو .

أما الهجرات القادمة من الناحية الشرقية فلا يمكن توقع أن يكون الدافع الاقتصادي وراءها, لأن مناطق حوض نهر النيل من أخصب الأراضي في المنطقة, وأكثرها مياهاً ولكننا نرجح أن الأسباب السياسية كانت وراء هذه الهجرات بدليل أن هجرة الكوشيين خلال القرن الرابع الميلادي قد جاءت على أثر أحداث سياسية [2] تمثلت في غزو الأحباش الذي أدى إلى سقوط دولة كوش[3]، وسنقتصر هنا على ذكر القبائل الأصلية القاطنة حول بحيرة تشاد منذ فترة طويلة أو التي جاءت إلى المنطقة في هجرات قديمة, وسنرجئ الحديث عن القبائل العربية إلى الفصل الخامس من هذا البحث ضمن حديثنا عن أثر الهجرات العربية

---

[1] – طرخان – المرجع السابق– ص 19 .

[2] –ربما جاءت هذه الهجرة أيضاً لعوامل أقتصادية فقد وصف الأدريسى كوش بأن " أهلها قليلون وتجارتها قليلة وأرضها حارة جافة وهى في طاعة ملك النوبه " الأدريسى ــ المصدر السابق ــ ص 37 .

[3] -طرخان – المرجع السابق –ص 19

على التكوين السكاني لمجتمع الكانم ومن أبرز القبائل التي استقرت في منطقة بحيرة تشاد مند فترة طويلة :ـ

الصو So :-

لقد اختلفت أراء المؤرخين حول أصل قبائل الصو وموطنهم الأصلي حيث يرى بارتBarth أنهم قسم من الفولانيين الذين أتوا من السودان الغربي وتحديداً من منطقة نهر النيجر والسنغال وسكنوا في المنطقة الممتدة من جبال تيبستى إلى جنوب بحيرة تشاد.

أما بالمرPalmer فيرى ان الموطن الأصلي للصو هو منطقة فزان جنوب ليبيا, فيما يسمى بمنطقة كاوار كما حاول بعض المؤرخين أن يرد أصول الصو إلى سلالة الهكسوس على أساس التشابه في الصفات الوراثية،والدور التاريخي الذي قام به هؤلاء في قلب أفريقيا و أولئك في مصر[1] بينما يرى البعض الآخر أن الصو يرجع أصلهم إلى حوض نهر النيل.

أن المتفق عليه بين المؤرخين هو أن الصو من القبائل التي استقرت حول بحيرة تشاد في فترة مبكرة, أما أصل هذه القبائل فقد اختلفت فيه الآراء كما رأينا. وإذا كان بعض الآراء قد استندت على أدلة مقنعة فبعضها الآخر يعوزه الدليل القوى فإرجاع أصل الصو إلى الهكسوس استناداً على التشابه في الصفات الوراثية يبتعد عن الحقيقة " فالهكسوس غزوا مصر في عهد الأسرة الحادية عشر, وحكموا شمال مصر وعندما انتصر أحمس عليهم وطردهم كان اتجاه

---

[1] –يعتمد هذا الرأي على أساس تشابه الخلقة والدور التاريخي الذي قام به هؤلاء في قلب أفريقيا وأولئك في مصر وذلك من حيث اعتمادهم على الخيل في حروبهم واستعمالهم العربات التي تربط خلف الحصان " انظر : فضل كلود ــ الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية الكانم ــ طرابلس ــ كلية الدعوة الإسلامية 1988 م ص 53 " أنظر أيضاً ــ طرخان ــ المرجع السابق ص 20

انسحابهم نحو الشرق وهى الجهة التي قدموا منها " [1] ولـم يثبـت تاريخيـاً أن الهكسوس اتجهوا جنوباً, والمرجح أن الصو يرجع أصلهم إلى الحوض الجنـوبي لنهر النيل وقد بنينا هذا الترجيح على مايلي :

1- إن هذه المنطقة كانت مصدراً للهجرات إلى بحيرة تشاد, وقد رأينا كيف أتجه الكوشيون إلى بحيرة تشاد بعد سقوط دولتهم على يد الأحباش, فمنطقة بحيرة تشاد تعد امتداداً طبيعياً لحوض نهر النيل حيث لا توجد موانـع طبيعيـة كالجبـال أو الغابات تعرقل سير الهجرات من حوض النيل إلى بحيرة تشاد, فضلاً عن ذلـك قرب منطقة البحيرة لحوض النيل فهي أول بلاد تليها من ناحية الغرب[2].

2 ــ تشابه المظاهر الحضارية التي عرفها الصو مـع حـضارات وادي النيـل, وتتمثل هذه المظاهر في الصناعات وخاصة صناعة الفخار والنحت والرسوم على جدران الكهوف ومن روائع فنونهم الصناعية التي تشبه صناعات حوض النيـل " رؤوس الأكباش التي يصنعونها من الفخار, ورسوم صور الحيوانـات, ومـشاهد الألعاب الرياضية " [3] .وقد استند هذا التشابه على الحفريات الأثرية التـي دلـت على وجود صلات وثيقة بين سكان وادي النيل ومنطقة النيجر, وحـوض بحيـرة تشاد [4].

3 ــ تشابه الصفات الجسمية بين الصو وسكان حوض نهر النيـل حيـث أمتـاز الصو بالطول كغيرهم من سكان حوض النيل حتى لقبـوا بالعمالقـة, وإن كانـت أساطيرهم القديمة تبالغ في وصف أجسامهم بما يضفي عليها صبغة خيالية بعيـدة عن الواقع[5]. لقد أقام الصو دولة كانت عاصمتها البلماء شـمال بحيـرة تـشاد, وعندما قامت دولة الكانم والبرنو خضع الصو لها وأصبحت بلادهم جزءا منها إلا

---

[1] -سليم حسن ــ مصر القديمة جـ4.القاهرة ــ الهيئة المصرية العامة للكتـاب ــ 1993 م . ص 180

[2] -العمرى ــ المصدر السابق ــ جـ 3 ــ ص 490 .

[3] -Palmer - The Bornu Sahara and sudan - london -1936 - P . 126

[4] – Abid –P 126

[5] - ذكر بأن طول الواحد منهم لايقل عن عشرين ذراعاً ، وإذا صاح أحدهم هاجـت الطيـور فـي أوكارها ، وأن الفرد منهم يستطيع حمل الحيوان الـضخم . أنظـر :ـــ Palmer -The Bornu Sahara P126

أن هذا الخضوع لم يكن دائماً, حيث كانوا يثورون على هذه الدولة بين الحين والآخر, وكانوا أحد أسباب وقف اتساع هذه الدولة في عصورها الأولى [1].

2- الزغاوة Zagaua :

تعد هذه القبيلة من أبرز القبائل التي لعبت دوراً أساسياً قبل قيام دولة الكانم والبرنو, ثم أسهمت في ظهور هذه الدولة, وقد أشارت المصادر العربية القديمة إلى الزغاوة بما يوحي بشهرة مملكتهم واتساعها, حيث يذكر المسعودى أن مملكة الزغاوة واسعة كبيرة [2]، كما يؤكد هذا الرأي التونسي الذي يصف الزغاوة بأنها قبيلة عظيمة من السودان وقد وصلت حدودها إلى بلاد النوبه شرقاً ومدينة مانان هي حاضرة المملكة[3] أما ياقوت الحموى فيذكر أن الزغاوة " مملكة عظيمة من ممالك السودان في حد المشرق منها مملكة النوبه التي بأعلى صعيد مصر بينهما مسيرة عشرة أيام[4], ثم يؤكد الحموى أتساع هذه المملكة وكثرة عمرانها فيقول " أن طول بلادهم خمس عشرة مرحلة في مثلها عمارة متصلة" [5]، كما يؤكد لويس (Lewis) وجود امارة الزغاوة قبل ظهور دولة الكانم والبرنو[6] .

لقد عرف الزغاوة بعض المظاهر الحضارية حيث يصف الحموى لباسهم وثروتهم فيقول " وزى ملوكهم سراويلات من صوف رقيق والاتشاح عليها بالثياب الرقيقة من الصوف والأسماط والخز السوسي والديباج الرفيع, وسلطانهم يده مطلقة في رعاياه, وغالب ثروتهم المواشي من الغنم والبقر والإبل والخيل,

---

[1] – فضل كلود – المرجع السابق ، ص 55

[2] - على بن الحسين المسعودى ــ مروج الذهب ــ بيروت ــ دار الأندلس ــ 1983 م-جـ 1- ص422

[3] - محمد بن عمر التونسى ــ تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد السودان ــ تحقيق : خليل عساكر ، مصطفي مسعد ــ القاهرة ــ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ــ 1965 م . ص 54 .

[4] - الحموى ــ مصدر سابق ــ جـ 3 . ص 142 .

[5] -المصدر نفسه ــ جـ 3 . ص 142

[6]I.M. Lewis-Islam in Tropical Africa – London – University library for Africa – 1980 – P 230.

وزروع بلادهم أكثرها الذرة واللوبيا والقمح "[1]، أما عن لغة الزغـــاوة الأصـــلية فهي قريبة من لغة التيبو، وبعد انتشار الإسلام بينهم أصبحت اللغة العربية هي لغة الدواوين والمكاتبات الرسمية لملوكهم

لقد اختلف المؤرخون حول اصل الزغاوة, وفي تاريخ استقرارهم شـــرق بحيرة تشاد فأرجعهم البعض إلى أصول بعيدة حيث يتفق المـــسعودى واليعقـــوبي على أنهم ينتمون إلى كوش بن كنعان بن نوح, وقد اتجه الزغاوة إلى ناحية الغرب بعد عبورهم للنيل [2]، بينما يشير ابن خلدون إشارة عامة إلى أصل الزغاوة حيث يرى أنهم ينتمون إلى أصول حامية [3]، ولم يقتصر الخلاف حول أصل الزغـــاوة على المصادر القديمة بل استمر الخلاف حول هذه النقطة في المراجـــع الحديثـــة وسنذكر نموذجين لهذا الخلاف حيث يرى البعض أن زغاوة فرع من قبيلة زواغة التي كانت تسكن في منطقة الجريد جنوبى تونس[4], بينما هناك رأى اخر يرى أن هذه القبيلة كانت تسكن في مملكة مروى ثم اتجهت ناحية الغـــرب عـــن طريـــق كردفان واستقرت شرق بحيرة تشاد ويستند هذا الرأي على وجود تقليد متبع لـــدى الزغاوة يجعل الزعامة تنتقل إلى ابن الأخت وفي حالة عدم وجوده تنتقل إلى ابن الخالة وهو نفس التقليد السائد في النيل الأوسط[5].

يميل الباحث أمام هذين الرأيين إلى الرأي الأول الذي يـــرى أن الزغـــاوة ينتمون إلى أصول جاءت من شمال أفريقيا مستنداً في هذا الترجيح إلى مايلى :ـــ

---

[1] – الحموى ـــ مصدر سابق - جـ 3 . ص 142 .

[2] - أحمد اليعقوبى ـــ تاريخ اليعقوبى ـــ بيروت ـــ دار صادر ـــ 1960 م ـــ جـــ 1 . ص 191 ، أنظر أيضاً المسعودي – المصدر السابق – ج1 – ص 235

[3] - أبن خلدون ـــ المصدر السابق ـــ جـــ 6 . ص 106 .

[4] – الحموي– المصدر السابق – ج 3 – ص 142

[5] – الشاطر بصيلي معالم تاريخ سودان وادي النيل من القرن العاشر الـــي القـــرن التاســـع عـــشر الميلادي القاهرة – 1955 م – ص 59

1 ــ اتفاق هذا الرأي مع المصادر القديمة التي ذكرت أن الزغاوة اتجهوا إلى بلاد المغرب بعد عبورهم للنيل وقد ذكر هذا الرأي اليعقوبى والمسعودى [1].

2 ــ تشابه أنماط الحياة بين الزغاوة والبربر حيث يصف الأدريسى الزغاوة بأنهم " قوم رحل ظواغن والأبل عندهم كثيرة اللقاح حسنة الإنتاج, وهم ينسجون من أوبارها البيوت التي يعمرونها ويأوون إليها, ويتصرفون في ألبانها وأسمانها ويتعيشون من لحمها" [2]وتنطبق هذه الصفات على القبائل البربرية التي عاشت في منطقة الصحراء, ويؤكد هذا أيضاً ماذكره بوفيل Bufil من أن الزغاوة فرع لبعض السكان الرحل[3].

3 ــ أن ياقوت الحموى عندما تحدث عن الزغاوة ذكر أنهم قبيلة من السودان جنوبي تونس[4] فتحديد سكنهم بجنوبي تونس ربما يشير إلى الموطن الأصلي لهذه القبيلة, كذلك فإن اللغة التي يتحدث بها الزغاوة قريبة من لغة التيبو وهم من القبائل التي تتنقل بين منطقة فزان وجبال تيبستى مما يؤكد ترجيحنا للأصول الشمالية للزغاوة .

إن هذه الاعتبارات لاتمنع تحرك هجرات قبائل من حوض النيل استقرت في منطقة شرق بحيرة تشاد واندمجت مع الزغاوة, ولعل من نتائج هذه الهجرات نقل بعض المظاهر السياسية التي كانت سائدة في حوض النيل مثل وراثة ابن الأخت او ابن الخالة للحكم حيث تأثر الزغاوة بهذه المظاهر وأصبحت جزءاً من حياتهم السياسية .

لقد استمر الزغاوة يحتفظون بنوع من الاستقلال الذاتي حتى بعد قيام دولة الكانم والبرنو حيث استمروا يسيطرون على منطقة كبيرة حول بحيرة فترى .

---

[1] –اليعقوبى ــ المصدر السابق ــ جـ 1 .ص191، المسعودى ــالمصدر السابق ج 1، ص422 .

[2] –الأدريسى ــ المصدر السابق ــ جـ 1 ــ ص 111 .

[3] –بوفيل ــ المرجع السابق ــ ص 363 .

[4] - الحموى ــ المصدر السابق ــ جـ 3 ، ص 142 .

وأصبحت عاصمتهم مدينة ساميناً[1] ومن مدنهم المشهورة مدينة شـــبين[2], وكـــان لهم حاكم مستقل يخضع بشكل اسمي لدولة الكانم ولم تزودنا المـــصادر القديمـــة بمعلومات دقيقة حول شكل نظام الحكم أو أسماء ملوك الزغاوة في تلـــك الفتـــرة سوى ماذكره اليعقوبى بقوله " ويقال لملكهم كراكرة " [3].

3 ــ الكانمبو Kanembu :ــ

يعد الكانمبو من القبائل التي سكنت تشاد في فترة مبكرة وقـــد جـــاء أســـم الكانمبو من النسبة إلى كانم فيقال في لغة الكانم " كانم ما أي رجل كانمى " وفـــي الجمع كانم بو أى كانميين " [4] وقد اختلط الكانمبو بالمجموعـــات القبليـــة التـــي استقرت في منطقة بحيرة تشاد حتى ان بعض المؤرخين يعد هذه القبائل خليطاً من قبائل الصو والبربر[5]، ومما يؤكد اندماج الكانمبو مع البربر أن قبائـــل الهوســـا كانت تطلق على الكانمبو أسم بربر " BariBari" [6].

لقد تميز الكانمبو عن بقية القبائل في منطقة بحيـــرة تـــشاد بمـــيلهم إلـــى الاستقرار وركونهم إلى حياة المدن حيث كانوا يعتمدون على الزراعة والتجـــارة والصناعات اليدوية كالنحت وصناعة الحديد كما تميز الكانمبو بالصناعات الخزفية والنسيج .

---

(1) - سامينا : تقع هذه المدينة قرب بحيرة تشاد فترى ، وكانت عاصمة للزغاوة ، وعرفت أحياناً باسم تاجو " Taju "، طرخان المرجع السابق ، ص 69

(2) - شبين : من المدن المشهورة التي خضعت لسيطرة الزغاوة وتقع قرب بحيرة تشاد أنظر طرخان ــ المرجع السابق ص 69 .

(3) –اليعقوبى ــ المصدر السابق ــ جـــ 1 ــ ص 157 .

(4) - طرخان ــ المرجع السابق ــ ص 24 .

(5) - المرجع نفسه ــ ص 23 .

(6) – البربر : أطلق هذا الاسم على سكان شمال أفريقيا في العصور القديمة والمـــرجح أن أول مـــن أطلقه عليهم الرومان على اعتبار أنهم ليسوا مواطنين رومانيين وقد وصفهم ابن حوقل بأنهم (قبائل لا يلحق عددهم ويوقف على اخرهم لكثرة بطونهم وتشعب أفخاذهم وقبائلهم وتـــوغلهم فـــي البـــراري وتبددهم في الصحاري وجميعهم من ولد جالوت إلا قليل منهم وفيهم ملوك ورؤساء ومقـــدمون فـــي القبائل يطيعونهم فلا يعصونهم ويأمرونهم فلا يخالفونهم والمال فيهم من الماشية كثير غزير) أنظر أبي القاسم ابن حوقل – صورة الأرض – بيروت – دار مكتبة الحياة –1992م–ص 97

وللمرآة مكانة كبيرة في مجتمع الكانمبو حيث كان الأولاد ينسبون إلى أمهاتهم.

4 ــ الكانورى Kanuri: ــ

تتشابه قبائل الكانورى مع قبائل الكانمبو من حيث أنها خليط من عناصر مختلفة من العرب والبربر والزنوج, وقد جاء اسم هذه القبيلة من نسبتها إلى كانم فهي محرفة من كلمة " Kanemri " في بعض الآراء[1] بينما يرى البعض الأخر أن الاسم مشتق من الكلمة العربية نور وأضيف الحرف ك لدلالة على النسبة فصار معنى الكلمة " حملة النور " أو " حملة المشاعل " [2]والنور هنا كناية عن الإسلام [3]، ولكننا لا نميل إلى هذا الرأي بسبب ظهور هذه القبائل في الفترة التي سبقت انتشار الإسلام في منطقة بحيرة تشاد .

لقد أصبحت لغة الكانورى هي اللغة السائدة حتى أصبحت كلمة كانورى تطلق على جميع العناصر المتكلمة بهذه اللغة, ومن أبرز خصائص الكانورى الاجتماعية احتقار زعمائهم ونبلائهم للأعمال اليدوية, كما كان للمرأة مكانة كبيرة في مجتمع الكانورى, مما يؤكد اختلاط قبائل الكانورى والكانمبو وانتقال مظاهر الحياة الاجتماعية من قبيلة إلى أخرى .

---

(1) –فضل كلود ــ المرجع السابق ــ ص 65 .

(2)- هوتسما وآخرون ــ ترجمة : إبراهيم خورشيد وآخرون ــ دائرة المعارف الإسلامية ــ بيروت ــ المكتبة الحديثة ــ (د.ت) جـ 3 ــ ص 579 ، ولا يميل الباحث إلى هذا الرأي على اعتبار أن استقرار هذه القبيلة في منطقة بحيرة تشاد يرجع إلى فترة سابقة على انتشار الإسلام واللغة العربية في المنطقة خاصة وأن الدور الكبير في نشر الإسلام يرجع إلى الوافدين من بلاد المغرب سواء أكانوا على شكل قبائل مثل الطوارق والتيبو أو على شكل تجار ودعاة كما سنرى في الفصل الأول من هذا البحث .

(3)- نرجح أن هذا الوصف ظهر بعد انتشار الإسلام في المنطقة وحرص كل قبيلة على أن تحوز شرف المساهمة في نشر الإسلام وهى تشبه محاولات قبائل أخرى ربط نسبها بالأصول العربية .

ومما يدل على هذا الاختلاط أيضاً استقرارهم في منطقة متقاربة جغرافيا حول بحيرة " فترى " [1].

لقد اسهم الكانورى في تأسيس دولة الكانم بشكل مباشر حيث ورد أن أول ملوك الكانورى وهو " دوجو Dugu " [2] ،هو جد الأسرة الماغومية[3] التي حكمت دولة الكانم والبرنو فيما بعد [4].

5 ــ البولالا Bulala: ــ

البولالا من القبائل القوية التي لعبت دوراً سياسياً مميزاً في منطقة بحيرة تشاد حيث كانوا السبب المباشر في إنهاء المرحلة الكانمية وانتقال الأسرة الحاكمة إلى منطقة برنو غرب بحيرة تشاد بسبب ضغط هذه القبائل, ويرى البعض أن البولالا نتاج اختلاط الاثيوبيين بالسود والعرب[5] ولكن بعض المؤرخين يخالف هذا الرأي ويرى أن كلمة بولالا مكونة من لفظي بولالا ومعناها : أحرار الطوارق أو

---

[1] - فترى : أسم البحيرة التي أستقر حولها الكانورى ويعنى الأسم " أرض الأجناس المختلفة " أنظر Palmer -The Bornu Sahara P212: ، ويؤكد هذا الاختلاط ماذكره طرخان من أن الزغاوة قد استقروا حول بحيرة فتري خلال سيادة الأسرة الماغومية على منطقة بحيرة تشاد ، أنظر أيضا طرخان – المرجع السابق – ص 52

[2]- دوجو : بن إبراهيم بن سيف بن ذى يزن وهو الماى الثالث وفق الرواية التي تنسب هذه الأسرة إلى سيف بن ذى يزن ويعتبر دوجو أول من حمل لقب " ماى" وينسب إليه بعض الأعمال الحربية في الجنوب .أنظر : طرخان ــ المرجع السابق ــ ص54

[3] –الأسرة الماغومية : هي الأسرة التي ينسب إليها تأسيس دولة الكانم والبرنو ، وكلمة ماغومى مرادفة لاسم قبيلة من أسلافهم تعرف بأسم التوماغرى أى " سكان التلال " وأختص بهذا اللقب طبقة النبلاء عند الطوارق " أنظر : طرخان ــ المرجع السابق ــ ص51 "

[4] - لازلت قبيلة الكانوري موجودة بأعداد كبيرة حيث وصل عدد أفرادها في النيجر وفق إحصائية حديثة (1972) حوالي 233 ألف نسمة ، انظر :

Samuil Decalo _ Historical dictionary of Niger – London – 1979 – P. 14.

[5] - شار أندريه جوليان ــ تاريخ أفريقيا ــ ترجمة : طلعت عوض أباظة ــ القاهرة ــ 1968 ــ ص 22 .

نبلاء الطوارق[1]، ويميل الباحث إلى الرأي الثاني استناداً على أن البولالا هم أبناء عمومة الأسرة الماغومية, وحيث إن الماغوميين ينتمون إلى نبلاء الطوارق, لذلك لا نستبعد أن يكون اسم البولالا يعنى نبلاء الطوارق .

لقد ذكر بعض المؤرخين أن البولالا فرع من الأسرة السيفية[2], بينما يرى البعض الأخر أنهم ينحدرون من أصول بربرية وقد قدموا من الشمال[3] وحيث ان منطقة بحيرة تشاد قد شهدت هجرات متوالية من القبائل بحيث يجعل من الصعب على أي عناصر قبلية المحافظة على أصلها الواحد, لذلك نرجح أن البولالا من العناصر التي نتجت عن المصاهرة بين الطوارق والعرب والزنوج, ويؤكد هذا الترجيح ماذكر عن الصفات الجسمية للبولالا التي تجمع بين الملامح العربية والزنجية حيث تميز البولالا بقوام متناسق ولون نحاسي أسمر وشعورهم ليست مجعدة ولهم شفاه رقيقة ووجوه مستطيلة [4]، ويميل البولالا إلى التمسك بالأصل العربي مما يدل على حرصهم على الارتباط بالنسب العربي كعادة أغلب الأسر الحاكمة في السودان الغربي والأوسط, كذلك مما يؤكد وجود روابط بين العرب وبين هذه القبائل مساعدة العرب لهم في صراعهم ضد حكام الكانم والبرنو .

لقد كانت العلاقة بين البولالا والماغومين في البداية حسنة حيث اشتركوا في الزحف نحو الأراضي الخصبة حول بحيرة تشاد, ثم استقر البولالا في شمال البحيرة وسيطروا على الطرق التجارية, كما أقاموا هناك حاضرتهم " ميتو ", إلا أن هذه العلاقة تأزمت بعد قيام دولة الكانم حيث وقعت عدة حروب بين الطرفين انتهت بانتصار البولالا, واضطر حكام الكانم إلى الهجرة نحو غرب البحيرة في عهد الماى

---

(1) -Palmer -The Bornu Sahara P127

(2) – عبدالفتاح مقلد الغنيمى ــ الإسلام وحضارته في وسط أفريقيا ــ سلطنة البولالا ــ القاهرة مكتبة مدبولى ــ 1996 م ــ ص 19

(3) - فضل كلود ــ المرجع السابق ــ ص 69 .

(4) - شارل أندريه جوليان – المرجع السابق – ص 22– أنظر أيضاً –الغنيمى–المرجع السابق ــ ص 20

عمر بن أدريس"[1] 788 ــ 793 هـ / 1386 ــ 1391 م " لتبدأ مرحلة برنو .

جـ. تأسيس دولة الكانم والبرنو

لقد تحدثنا فيما سبق عن العناصر السكانية التي كانت تقطن منطقة بحيرة تشاد ورأينا أن العناصر قد شكلت خليطاً بشرياً من الصعب الفصل بين عناصره[2] ،وسنحاول هنا التعرف على كيفية نجاح الأسرة الماغومية في تأسيس نظام سياسي يجمع شمل هذه العناصر في دولة واحدة بحيث يبرز شعور الولاء لهذه الدولة إلى جانب شعور الانتماء للقبيلة .

لقد سبق قيام دولة الكانم والبرنو بعض المحاولات لإنشاء دويلات متفرقة وكان لهذه الدويلات أنماط حضارية متميزة, حيث رأينا عند حديثنا عن الصو مثلاً اشتهارهم بصناعة الفخار وإتقانهم لصناعة الحديد والنحاس، كذلك اشتهر الزغاوة بمميزات أخرى من حيث بيوتهم ولباس ملوكهم ونشاطهم الزراعي[3]، إلا أن هذه المظاهر تقتصر على دويلات إقليمية لم تأخذ شكلاً موحداً يميز منطقة بحيرة تشاد .

إن أبرز العوامل التي تؤدى إلى قيام أي دولة هو الاستقرار, وينطبق هذا بالتأكيد على دولة الكانم والبرنو حيث توفرت في منطقة بحيرة تشاد العوامل المشجعة على استقرار العناصر القبلية الوافدة[4] وقد وجدت كل قبيلة ضالتها المنشودة, فالذين ينشدون الزراعة وجدوا الأرض الخصبة, ومن كانوا ينشدون التجارة وجدوا الطرق السالكة والبيئة الآمنة,

وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ تأسيس هذه الدولة فمنهم من بالغ في تحديد تاريخ ظهورها فذكر أنها عاصرت الحضارة الفرعونية على أساس تشابه

---

[1] –عمر بن ادريس :أخر مايات كانم في المرحلة الأولى وقد جمع العلماء استشارهم في الخروج من كانم فأشاروا عليه بذلك فترك كانم واتجه نحو غرب البحيرة ، وقد كانت مدة ملكه خمس سنين . " أنظر ديوان الكانم والبرنو ــ ص 44 .

[2] – الوزان ــ المصدر السابق ــ ص 35 ، أنظر أيضاً " حسن عيسى عبد الظاهر ــ الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا ــ القاهرة – الزهراء للاعلام العربي – 1991م.

[3] – الأدريسى ــ المصدر السابق ــ جـ 1 ــ ص 111 .

[4] – الوزان ــ المصدر السابق ــ ص 41

مخلفاتهم الحضارية مع مخلفات المصريين القدماء في تلك الفترة [1]، وهذا الـرأي لا يصمد أمام الحقائق التاريخية فمنطقة وسط أفريقيا لم تعرف فـي تلـك الفتـرة ظهور الدول بل كان النظام القبلي هو السائد, أما المخلفات الحضارية فهي تعبـر عن مظاهر حضارية إقليمية ابتكرها الإنسان في إطار صـراعه المـستمر فـي الحصول على لقمة العيش ولا تعنى هذه المظاهر وجود دولة موحدة تسيطر على منطقة تشاد في تلك الفترة .

إن المرجح في تاريخ ظهور هذه الدولة ماذكره بعض المؤرخين الأوربيين حيـث يرى صمويل ديكادو أن هذه الدولة قد تأسست فى القرن التاسع الميلادى[2]. بينمـا يرى البعض الآخر أنها تأسست حوالى سنة 800 ميلادى[3], وهذه الآراء لا تبتعـد عما ورد من اشارات فى بعض المصادر العربية [4]

لقد ارتبط تأسيس هذه الدولة بالأسرة الماغومية التي تنتمي إلى نبلاء الطوارق مما يؤكد الأصول الشمالية لهذه الدولة, وتتميز المرحلة الأولى من تاريخ هذه الأسـرة بالطابع الأسطوري بسبب نقص المعلومات عن هذه الفترة وربما يكون مـصدرنا الوحيد هو ديوان الكانم والبرنو الذي تم تأليفه في أواخر القرن العاشر الهجـري " القرن السادس عشر الميلادي " وعثر عليه الرحالة بارت Barth، ومن المـرجح ان تكون معلومات صاحب الديوان عن المرحلة الأولى مستقاة من مصادر شفوية تعتمد على القصص أكثر من اعتمادها على وثائق مكتوبة .

لقد بلغ ملوك المرحلة الأولى أحد عشر ملكاً أولهم سيف بن ذى يزن[5]، وأخـرهم جيل بن شو المعروف أيضاً بسالما الذي يؤرخ لحكمه بسنة"468 هـ/1075 م ", وتذكر الروايات المحلية أن زوج سيف بن ذى يزن تنتمي إلـى الزغـاوة, وقـد

---

[1]- فضل كلود ــ المرجع السابق ــ ص 77 .

[2] Samuel Dicalo – Historical Dictionary of Chad – London – 1977 – p.9.

[3]Ibrahiama Baba Kake – Combats Pour L'historie Africaine – Pairs – 1982 – p.138

[4] لقد ذكر هذه الدولة اليعقوبي على سبيل المثال وقد عاش في القرن التاسع الميلادي ، مما يوحى بوجود هذه الدولة في عصره "انظر اليعقوبي ـ المصدر السابق ـ جـ 1 ـ ص 191

[5] - ديوان الكانم والبرنو ــ ص 33 .

أنجبت له ابنه إبراهيم الذي تولى الحكم بعده, وبعد إبراهيم تولى الحكم أبنه " دوكو Duku" الذي أطلق عليه لقب الماى وتعنى " الملك ", ثم تتوالى سلسلة ملوك هذه الأسرة حتى تصل إلى جيل بن شو, والملاحظ من خلال أماكن دفن الملوك على حدود الدولة أن هؤلاء الملوك قادوا الحملات العسكرية لتوسيع دولتهم والقضاء على خطر القبائل المناوئه لهم, ومما يؤكد الطابع الأسطوري لهذه الروايات أنها تجعل بعض الملوك قد حكم لمدة 250 سنة[1]، كما يلاحظ خلال هذه الفترة عدم خضوع الزغاوة لسلطة هؤلاء الملوك ،بل ان بعض الملوك قد حرصوا على إقامة علاقة طيبة مع الزغاوة ليتقوا سطوتهم .

النسب السيفي للأسرة الماغومية : ــ

لقد سميت الأسرة الحاكمة في الكانم بالأسرة السيفية, وذلك لإدعاء هذه الأسرة الانتساب إلى سيف بن ذي يزن الذي نجح في طرد الأحباش من اليمن ودخل صنعاء سنة 575 م [2]، وقد ورد هذا النسب في ديوان الكانم والبرنو, حيث ذكر أن سيف أول ملوك كانم, وأنه جاء وأمه من مكة وحكم في برنو مدة عشرين سنة, وأنه بنى العاصمة " جيمى ", كذلك أكد هذه الرواية الماي عثمان بن أدريس[3]" 795 ــ 828 هـ / 1392 ــ 1424 م " في رسالة إلى سلطان مصر في عهد المماليك السلطان برقوق سنة " 795 هـ 1392 م" يشكو فيها من اعتداءات عرب جدام حيث قال في الرسالة :" ونحن بنو سيف بن ذي يزن والد قبيلتنا العربي

---

(1) - أبراهيم طرخان ــ المرجع السابق ــ ص 55

(2) –أبن خلدون ــ المصدر السابق ــ جـ 6 ــ ص 199 .

(3) - عثمان بن إدريس : أحد مايات دولة الكانم والبرنو خلال المرحلة الكانمية وقد حكم لمدة 33 سنة واتسم عصره بكثرة الاضطرابات والحروب والقلاقل بسبب حروبه المتصلة مع البولالا وقد أرسل إلى الملك برقوق في مصر يشكو إليه من اعتداءات الأعراب على رعاياه . أنظر : إبراهيم صالح بن يونس – تاريخ الإسلام والعرب في إمبراطورية الكانم والبرنو – الخرطوم – كلية الآداب – 1970 م – ص73

القرشي, كذا ضبطناه عن شيوخنا "[1] كما أن احمد بن فرتوا وهو مؤرخ البلاط في عهد أدريس الوما Aluma " 978 ــ 1012 هـ / 1570 ــ 1603 " أكد هذا النسب وربطه بقريش[2].

إذا وضعنا قصة هذا النسب في إطار واقعي وحاولنا التأكد من وجوده وفق المعطيات التاريخية زماناً ومكاناً فسنجد أن هذا النسب لا يصمد أمام الحقائق التاريخية وذلك للأسباب التالية : ــ

1 ــ من الناحية الزمنية نجد أن سيف عاش في القرن السادس الميلادي [3]، بينما تأسست مملكة الكانم كما رأينا في أواخر القرن الثامن وفق أرجح الآراء, فطول الفترة الفاصلة بين العهدين والتي تصل إلى قرنين من الزمان تؤكد عدم صحة هذا النسب خاصة و أن الرواية المحلية تصر على أن سيفا نفسه حضر إلى بلاد الكانم وأسس الدولة, فلو كان الأمر مجرد نسب بعيد إلى هذا الرجل لكان قابلاً للتصديق, ولكن ربط قيام هذه الدولة بسيف نفسه يفند هذه الرواية من أساسها .

2 ــ أن الرواية المحلية تحاول الجمع بين الانتماء لسيف والانتماء لقبيلة قريش, وبدا هذا واضحاً في رسالة الماى عثمان بن أدريس التي تطرقنا إليها حيث يصف سيف بأنه " والد قبيلتنا العربي القرشي "[4]، وقد انتبه القلقشندى إلى هذه المغالطة التاريخية فقال " إلا أنه لم يحقق النسب فذكر أنه من قريش, وهو غلط فإن سيف بن ذي يزن من أعقاب تبابعة اليمن من حمير"[5]، فالمعروف أن سيف ينتمي إلى الفرع القحطانى " عرب الجنوب " بينما ترجع قريش إلى الفرع العدنانى " عرب الشمال " .

وربما اعتمد من يقول بهذا الرأي على مقابلة بين عبدالمطلب بن هاشم وسيف بن ذي يزن عندما قصد عبدالمطلب اليمن ليهنئ سيف على انتصاره وطرده الأحباش

---

(1) –احمد بن على القلقشندى ــ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ــ تحقيق نبيل الخطيب –بيروت ــ دار الكتب العلمية – 1987 – جـ 5– ص 269 .

(2) -Palmer - The Bornu sahara - p 6

(3) –ابن خلدون ــ المصدر السابق ــ جـ 2 ــ ص 73 .

(4) - القلقشندى ــ المصدر السابق ــ جـ 5 ــ ص 269 .

(5) –المصدر نفسه ــ جـ 5 ــ ص 269 .

من اليمن, وقد سأله سيف عن نسبه واخبره أنه عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف فرحب به سيف وقال : " أنت إذاً ابن أخينا "[1]وهذه العبارة التي وردت على لسان سيف تحمل مغالطة أخرى, فهذه المقابلة وقعت فعلاً وذكرتها أغلب المصادر, ولكن الصحيح أن سيف خاطب عبد المطلب بقوله " أنت إذاً ابن أختنا "[2]ولم يقل "ابن أخينا " [3]

3 ــ من الثابت تاريخياً أن سيف بن ذى يزن أصبح ملكاً على اليمن بعد انتصاره على الأحباش [4]، وبناء على هذا فلم نجد دوافع مقنعة تجعل هذا الملك يترك بلاده التي قاسى الكثير في سبيل تحريرها, ويترك مكانه في الحكم ويذهب إلى وسط أفريقيا ليؤسس دولة هناك, فالظروف السياسية التي وجد سيف نفسه فيها كحاكم لبلاد محررة تجعل مسألة ترك هذه البلاد لا تعقل, وقد استمر سيف في حكم اليمن حتى اغتيل على يد أحد الحراس الأحباش الذين استبقاهم لخدمته[5].

بعد أن ذكرنا الأدلة على نفي هذا النسب فسنحاول التعرف على الدوافع وراء صدور هذه الرواية وإصرار الروايات المحلية على صحتها خاصة إذا عرفنا أن مسألة الانتساب إلى العرب تكاد تكون ظاهرة عامة في ممالك السودان الغربي

---

[1] –المسعودى ــ المصدر السابق جـ 2 ــ ص 59 .

[2] –جواد على ــ " المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام " بيروت ــ دار الغرب الإسلامي ــ 1987 م

[3] –على اعتبار إن أم عبدالمطلب هى سلمى بنت زيد بن عمرو من بنى عدى بن النجار من الخزرج الذين يرجعون إلى أصول يمنية أى أن سيف بن دى يزن أعتبر نفسه من أخوال عبدالمطلب " أنظر / محمد بن جرير الطبرى ــ تاريخ الرسل والملوك ــ بيروت ــ مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر ــ 1992 م جـ 1 ــ ص 441 .

[4] - ابوحنيفة أحمد ابن داود الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق : عبدالمنعم عامر ،بغداد ، مكتبة المثنى ، 1959، ص 64.

[5] –أبو العباس شمس الدين ابن خلكان– وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان– بيروت–دار إحياء التراث الإسلامي–1997–ج3–ص 226 – أنظر أيضا:– الدينوري –المصدر السابق ــ ص 64 .

والأوسط، فسكان مملكة غانه يدعون الانتساب إلى صالح بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب [1]، أما مملكة مالى فهناك رواية تنسب سكانها إلى على بن أبى طالب[2]، كذلك يذكر السعدي أن ذا الأيمن أول ملوك صنغاى قد جاء من اليمن[3], ولو رجعنا إلى منطقة بحيرة تشاد لوجدنا أن النسب السيفي لم يكن الوحيد هناك بل حاولت روايات آخرى إيجاد صلة بين بلال بن رباح مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم وبين بلاد كانم[4].

إن أول ما نلاحظه أن مثل هذه الادعاءات لم تظهر إلا بعد انتشار الإسلام والحضارة العربية في تلك الجهات, وهذا يؤكد ارتباط هذه الظاهرة بدخول الأسر الحاكمة في الإسلام ومن ثم البحث عن نسب عربي تستمد منه نفوذاً معنوياً يكسبها شرعية تعزز من مكانتها في نفوس مواطنيها, ومن جهة أخرى جاء هذا الادعاء ليؤكد رغبة الأسر الحاكمة في ممالك السودان في تأكيد ارتباطها بالعرب, خاصة بعد اتصالها بالممالك الإسلامية في بلاد المغرب ومصر والحجاز ومالمسته من مظاهر حضارية جعلتها تفتخر بانتسابها لهذا العالم العربي الإسلامي .

إن ادعاء الروايات المحلية في الكانم والبرنو بانتساب الأسر الحاكمة إلى سيف بن ذي يزن يمكن أن يكون له دافع آخر قوى وهو أن الأسرة الماغومية تنتمي إلى نبلاء الطوارق مما يؤكد وجود رابط بين الانتساب لسيف والانتماء للطوارق ،فالطوارق فرع من قبائل صهناجة[5] التي ترفع نسبها إلى عرب حمير ببلاد اليمن[6] حيث اكتشف في اليمن الجنوبى آثار ونقوش في منطقة المكلا مكتوبة

---

(1) الأدريسى ــ المصدر السابق ــ ص23 .

(2) –طرخان ــ المرجع السابق ــ ص 35 .

(3) –عبدالرحمن السعدى ــ المصدر السابق ــ ص 4 .

[4]John Iliffe lef Africanins Histoire D'un Continenth - Paris - 1997 - p134.

(5) - ابن خلدون، المصدر السابق، جـ 6ـ ص 179. أنظر أيضاً طرخان ــ المرجع السابق ــ ص 32

(6) - ابن خلكان ــ المصدر السابق ــج1– ص140 ، أبن خلدون ، المصدر السابق ،ج 6 ، ص 198.

بالحروف نفسها التي يكتب بها الطوارق, كما وجدت بعض القبائل العمانيـــة فـــي ظفار يتحدثون بلهجة قريبة من لهجة الطوارق[1]، فربما جاء هذا الادعـــاء بحكـــم انتمائهم لحمير وفخرهم بسيف بن ذى يزن " المنتمى إلى نفس القبيلة " خاصة وأنه قام بعمل بطولي في سبيل تحرير بلاده من الأحباش, ومع مرور الزمن تحول هذا الفخر إلى ادعاء بالانتساب لهذا الرجل, ومن جهة أخرى فإن ادعاء هـــذا النـــسب يؤكد لنا صحة الرأي القائل بانحدار الاسرة الماغومية من الطوارق[2] أو بمعنـــى آخر فإن الهجرات والاختلاط الاجتماعي المتبادل بين الشمال والجنوب كـــان لـــه دوره في ظهور فكرة الانتساب إلى أصول عربية.

د / مرحلة سيادة كانم:

ليس من مهمتنا في هذا البحث دراسة تاريخ دولة كانم بشكل تفصيلي لأن البحـــث يركز على العلاقات بين هذه الدولة وبلاد المغرب, لذلك رأينا أن نعطـــى فكـــرة سريعة عن هذه الدولة والمراحل التي مرت بها قبل أن نتطـــرق إلـــى موضـــوع علاقاتها مع بلاد المغرب .

لقد مرت دولة كانم بمرحلتين سياسيتين : ــ

1 ــ بدأت الأولى ببداية عهد أوم بن جيل[3] الذي تولى الحكم سنة " 479 هـــ / 1086 م "وكان مقر الدولة في هذه المرحلة إقليم كانم شرق بحيرة تشاد, واستمرت هذه المرحلة حتى القرن " الثامن الهجري " أواخر القرن الرابع عشر المـــيلادي,

---

[1] محمد سعيد القشاط ــ الطوارق ــ عرب الصحراء الكبرى ــ بيروت ــ دار المحيط العربـــي – " د.ت " ص 30 .

[2] –حسن أحمد محمود ــ الإسلام والثقافة العربية في أفريقيـــا ــ القـــاهرة ــ دار الفكـــر العربـــي ــ1999م. ص 199 .

[3] –أوم بن جيل : يعتبر من أول المايات الذين ابتدأت بهم الفترة التاريخية المعروفة في دولة الكـــانم وقد تولى الحكم حوالى سنة 479هـــ/ 1086م . " فضل كلود ــ المرجع السابق ــ ص 36 .

وكان آخر حكامها أبوبكر ليباتو Libato" 788 هـ / 1386 م " ويطلق على هذه المرحلة أسم مرحلة كانم[1] .

2 – أما المرحلة الثانية فتبدأ بعهد عمر بن إدريس[2] سنة "789هـ – 1387م"حيث انتقلت الأسرة السيفية إلى إقليم برنو غرب بحيرة تشاد بسبب ضغط قبائل البولالا, وقد استمرت هذه المرحلة حتى القرن التاسع عشر الميلادي الذي تميز ببداية التغلغل الأوربي في أواسط القارة .

تبدأ المرحلة الكانمية مع بداية التاريخ المعروف لسلاطين الكانم بعد انتهاء المرحلة الأسطورية التي غابت عنها المعلومات التاريخية الدقيقة, وتبدأ المرحلة الكانمية بتولى أوم بن جيل " 479 ــ 490 هـ / 1086 ــ 1096 م" وأول مانلاحظه على هذا الماى تلك النقلة الإدارية من اعتباره " فوجو " "fugu " أي شيخ قبيلة بلغة الكانورى إلى حاكم يمتاز بحسن التنظيم والإدارة [3]، مما يوحي ببداية الانتقال من العقلية القبلية المحدودة إلى افاق الدولة الواحدة ذات النظام الإداري الشامل، وفي عهد دونمه بن أوم[4]" 491 ــ 546 هـ / 1097 ــ 1151 م" بلغت المملكة درجة كبيرة من القوة والأتساع[5]وقد اعتمد دونمه على القوة العسكرية لتوسيع حدود دولته حيث بلغ عدد جنوده 120 ألف, كما أعتمد على سلاح الفرسان فبلغ عدد خيوله مائة 100 ألف فرس "[5].

---

[1] –أمين الطيبى ــ كانم ــ برنو بالسودان الأوسط ، صلات تاريخية وتجارية بالشمال الأفريقي ــ مجلة البحوث التاريخية ــ العدد 2 ــ 1987 م . طرابلس مركز دراسات جهاد الليبيين ــ ص 75 .

[2] – أنظر الملحق رقم (3)

[3] -Palmer - The Bornu sahara - p156

[4] - دونمه بن اوم : أحد مايات الكانم والبرنو، حكم لمدة 55 سنة وقد أشتهر بتمسكه بالدين وزاد انتشار الإسلام في عهده وبنى أول مسجد في مدينة بالال الواقعة شرق كانم " انظر طرخان ــ المرجع السابق– ص69"

[5] - ديرك لانج– "ممالك تشاد وشعوبها "ــ موسوعة تاريخ أفريقيا العام ــ منظمة اليونيسكو ــ 1988 م ــ ص 257 .

[5] - ديوان الكانم والبرنو ــ ص 32 .

واصل خلفاء دونمه جهودهم في توسيع الدولة والمحافظة على حدودها من خطر هجمات القبائل المناوئة مثل الصو والبولالا, حيث نجح عبدالجليل " سالما"[1] في الانتصار على الصو وتوسيع حدود دولته حتى أصبحت تمتد من فزان إلى منطقة حوض النيل, إلا أن أشهر مايات كانم في هذه المرحلة هو دونمه دباليمى " 618 ــ 658 هـ / 1221 ــ 1259 م " الذي اشتهر بأنه محارب قوى قاد الكثير من الحملات لتوسيع دولته فتمكن من إخضاع بلاد الهوسا، كما وصلت دولته إلى مشارف حوض النيل من الشرق بينما توسع في الشمال على حساب إقليم كاوار وفزان وإن كان من التعسف على رأي بعض الباحثين أن نؤكد أن كانم كانت في القرن الثالث عشر إمبراطورية واسعة ذات تنظيم إقليمي متين[2] بمعنى أن حدود الدولة لم تكن ثابتة بل كانت تتسع وتنكمش تبعاً لقوة الحملات العسكرية التي قادها دونمه, وتبعاً للظروف السياسية التي تمر بها الدولة .

نهاية المرحلة الكانمية : ــ

يرتبط سقوط الدول عادة بأسباب داخلية من أخطرها الصراع بين أبناء الأسرة الحاكمة, وقد يكون الغزو الخارجي أحد أسباب سقوط الدولة ولكن نجاح هذا الغزو مرتبط بضعف الجبهة الداخلية في أغلب الأحيان وينطبق هذا بالطبع على دولة الكانم والبرنو في مرحلتها الأولى حيث يعد عهد دونمه دباليمى آخر عهود القوة في هذه المرحلة فقد بدأ الصراع بين أولاده حول الحكم في أواخر عهده, إلا أن مقدرة والدهم السياسية وقوته العسكرية استطاعت القضاء على هذه الصراعات, ثم استمر الصراع على الحكم بعد وفاة دونمه, ووصل التدهور السياسي في هذه الدولة مرحلة خطيرة حيث تذكر المراجع أن الماى إبراهيم بن بيرى " 700 ــ

---

[1] - تعنى سالما باللغة الكانورية " الأسود " وقد أشتهر بسواد لونه بعكس أسلافه" "انظر طرخان ــ المرجع السابق ــ ص 85 " .

[2] - لانجي ــ المرجع السابق ــ ص 260 .

721 هـ / 1300 ــ 1321 م " قد أقدم على قتل ابنه وتعرض هو نفسه للقتل على يد محمد بن كاداى " حاكم الشمال " [1].

استمرت الحرب الأهلية والمؤامرات بين أبناء الأسرة الحاكمة بما لايتسع المجال لتفصيله هنا, وكان من أبرز نتائج هذا الصراع ازدياد مطامع القبائل المناوئة للدولة مثل الصو والبولالا الذين استغلوا هذه الظروف الداخلية وشددوا من هجماتهم على الدولة .

لقد بدأ خطر الصو في الظهور منذ بداية القرن الثالث عشر, وكان أول خروج لهم في عهد عبدالجليل سالما وعلى الرغم من نجاح عبدالجليل في صدهم مؤقتاً إلا أنه قتل في المعارك ضدهم[2] مما يدل على شراسة المعارك بين الطرفين, ولم يستطيع الصو أن يقضوا على دولة الكانم بشكل نهائي إلا أنهم اسهموا في إضعافها وأصبحوا مصدر خطر مستمر على هذه الدولة حيث تمكنوا من قتل أربعة من المايات[3]في منتصف القرن الثامن الهجري " الرابع عشر الميلادي ", مما مهد الطريق أمام قبائل البولالا للقضاء على هذه الدولة في مرحلتها الكانمية .

لقد رأينا عند حديثنا عن العناصر السكانية أن قبيلة البولالا تعد فرعاً من الأسرة السيفية, وكانت العلاقة حسنة في بداية زحفهم المشترك على منطقة بحيرة تشاد, ولكن بعد ظهور دولة الكانم ساءت العلاقات بين الطرفين ،وأصبح البولالا عنصراً متمرداً بشكل مستمر على سلطة الكانم, وتمكنوا من تأسيس إمارة شمال بحيرة فترى[4]، وأصبحت هذه الأمارة في حالة حرب مستمرة مع حكام الكانم مستغلة الانشقاق في صفوف الأسرة المالكة.

إن أخطر مراحل الصراع بين البولالا وحكام الكانم كان في عهد دونمه دباليمى حيث ازداد ضغط البولالا وتصدى دونمه لهذا الضغط فقاد عدة حملات بنفسه وانتصر على البولالا في أكثر من موقعة وقتل منهم أعداد كبيرة, ولكن دونمه نجح فقط في تأجيل خطر هذه القبائل إلى نهاية عهده, فقد استمرت هجمات

---

(1) -Palmer - The Bornu sahara - p 92

(2) – Apid –P92

(3) –لانجي ــ المرجع السابق ــ ص 264 .

(4) - الغنيمى ــ المرجع السابق ــ ص 27 .

البولالا بعد وفاة دونمه مستغلين الصراع الداخلي بين أبناء الأسرة الحاكمة, ولعل مما اسهم في إشعال هذا الصراع بصورة أكبر ورجح كفة البولالا ظهور زعيم بولالى قوى هو عبدالجليل بن سيكوما " 767 ــ 814 هـ / 1365 ــ 1411 م " الذي عاصر تسعة من مايات كانم وقتل منهم أربعة خلال هذا الصراع [1]، وفي النهاية انتصر البولالا واضطرت الأسرة السيفية في عهد عمر بن أدريس " 788 ــ794 هـ / 1386 ــ 1391 م" إلى مغادرة إقليم كانم والاتجاه إلى الغرب حيث استقروا في إقليم برنو[2], ودخل البولالا العاصمة جيمى وسيطروا على إقليم كانم بينما استمرت الأسرة السيفية في الحكم غرب بحيرة تشاد فيما يعرف بمرحلة البرنو .

هـ / مرحلة سيادة برنو

بدأت مرحلة سيادة برنو بمغادرة آخر حكام الأسرة السيفية وهو عمر بن أدريس لإقليم كانم والاستقرار غرب بحيرة تشاد في إقليم برنو وتحديداً حول نهر " يوبيه "[3] وبدأ منذ ذلك التاريخ أسم برنو يتحول من مجرد إقليم تابع لدولة كانم إلى مركز القوة في هذه الدولة فقد لمع اسم برنو في المؤلفات التاريخية بداية من أواخر القرن الثامن والتاسع الهجري/القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر الميلادى .

لقد اتخذ الماى عثمان بن أدريس 795-829هـ /1392-1425م من مدينة كاكا عاصمة لدولته وبدأ في إعادة ترتيب أمور الدولة الإدارية بعد فترة الفوضى التي رافقت خروجهم من كانم, ولكن الحرب الأهلية استمرت تمزق جسم الدولة مع استمرار خطر البولالا, حيث أعلن بعض حكام المقاطعات استقلالهم, ونتج عن

---

(1) -لانجي ــ المرجع السابق ــ ص 264، دائرة المعارف الإسلامية- مادة برنو -ج7-ص 124 .

(2)Samuel Decalo -Historical dictionary of Chad - p9

(3) إبراهيم صالح بن يونس ــ المرجع السابق ــ ص 72 .

هذا حروب أهلية زادت من سوء الأوضاع في إقليم برنو[1], كما تعرضت الدولة لهجمات من قبائل جدام العربية مما جعل الماى عثمان بن أدريس يرسل إلى سلطان مصر السلطان برقوق سنة "795 هـ 1392 م " يشكو إليه تصرفات هذه القبائل وإقدامها على استرقاق عدد من أفراد دولته لغرض بيعهم كرقيق[2].

استمرت حالة الفوضى السياسية في برنو في عهد خلفاء عثمان حيث قتل بعضهم ونفي بعضهم الآخر على يد حكام الأقاليم ذوى النزعة الانفصالية, وقد بدأ نفوذ هؤلاء الحكام في الظهور في عهد عثمان بن ادريس 795-829هـ 1392-1425م مستغلين انشغاله بالمشاكل الداخلية[3].

بعد فترة من الفوضى استمرت حوالي قرن من الزمان بدأت مرحلة الاستقرار والقوة بتولي الماى على القاجى الذي يلقب بالغازي[4] سنة " 877 هـ /1472 م ", وقد نجح هذا الماى في إقصاء منافسيه عن الحكم والقضاء على الحروب الأهلية وتمكن من إعادة هيبة الدولة وكان أبرز أعماله قيامه ببناء عاصمة ثابتة للدولة وهى مدينة بيرنىBirni التي تقع غرب مدينة كاكا Kuka.

سار الماى أدريس بن على (ابن عائشة) " 909 ـ 933 هـ/1503 ـ 1526 م " على سياسة والده بالمحافظة على وحدة الدولة, ولعل أبرز أعماله في هذا المجال نجاحه في هزيمة البولالا - الأعداء التقليديين للأسرة السيفية - واستعادة العاصمة القديمة للدولة " جيمى ", ولكن هذا الماى فضل العودة إلى بيرنى بعد ضمان خضوع البولالا لسلطته .

---

[1] - ابراهيم طرخان - المرجع السابق - ص 106 لمزيد من التفصيل حول مرحلة سيادة برنو ، أنظر : عبد الفتاح حسنين مقلد - سلطنة البرنو حتى 1808 م - رسالة ماجستير غير منشورة - جامعة القاهرة - معهد البحوث والدراسات الأفريقية - 1978م

[2] -القلقشندى ـ المصدر السابق ـ جـ 8 ـ ص 119 ـ انظر نص الرسالة في الملحق رقم (1)

[3] -لانجى - المرجع السابق- ص 271

[4] -على الغازى : هو السلطان الثامن والأربعون في ترتيب ملوك أسرة كانم ، وقد تمكن من إعادة هيبة الدولة وأشتهر بمواهبه الإدارية ، ومن أبرز أعماله بناء مدينة بيرنى التي أصبحت عاصمة لدولة الكانم والبرنو خلال مرحلة برنو ، كما وطد علاقاته مع ممالك بلاد المغرب وأستورد منها الخيل لاستعمالها في جيشه " انظر ـ إبراهيم صالح ـ المرجع السابق ـ ص 79 .

استمرت جهود خلفاء على الغازي وابنه أدريس في توسيع حدود الدولة علـــى حساب جيرانه والتصدي لخطر البولالا الذين لازالوا يحملون روح العداء للدولـــة رغم خضوعهم الظاهري, وينتظرون الفرصة المناسبة للقضاء عليها ويعد عهـــد أدريس الوما " 779 ــ 1012 هـــ / 1571 ــ 1603 م " من أزهـــى عـــصور تاريخ برنو من حيث اتساع الدولة ونظمها الإدارية, إذ يبدو أن مواهب ادريس لم تقتصر على النواحي العسكرية بل كان يملك مواهب إدارية ســـاعدته علـــى إدارة شئون المملكة وحمايتها من المعارضة الداخلية والأخطار الخارجية [1]، لذلك كـــان عهده يقارن بعهد منسى موسى[2]" ت 738 هـــ / 1337 م " في مـــالى, وعهـــد أسكيا محمد [3]" ت 936 هـــ / 1529 م " في صنغاى .

لقد نقل إلينا أحمد بن فرتوا الذي عاصر ادريس الوما أخبار غزواته العـــسكرية بالتفصيل في مخطوط عثرعليه بالمر وترجمه تحت عنوان :

{ الإثنى عشر سنة الأولى من حكم ادريس الوما "979-991هـــ/ 1571 ــ 1583 م " }

وقد ساعد إدريس الوما في تحقيق انتصاراته في هذه الحـــروب أن جيـــشه كـــان يستخدم الأسلحة النارية التي حصل عليها نتيجة لتوطيد علاقاته مع الأتراك الذين بدأ في تلك الفترة حكمهم في شمال أفريقيا, فقد تولى مدربون أتـــراك أحـــضروا

---

[1] Phillis . M,Martin - OP.Cit - p82.

[2] -منسى موسى : يعتبر من أشهر ملوك مملكة مالى وقد وصفه ابن خلدون بأنه " رجـــلاً صـــالحاً وملكاً عظيماً له في العدل أخبار تؤثر عنه " وقد زاد من شهرة هذا الملك رحلة الحج الشهيرة التـــي قام بها سنة 724 هـــ / 1323 م وقد ذكر ابن خلدون أن منسى موسى صحب معه ثمانية حملاً من التبر وكل حمل ثلاثة قناطر كما رافقه 500 خادم ، كما ذكر القلقشندى ان منسى موســـى قـــد وزع أغلب هذه الثروة على البلاط الحاكم في مصر " انظر ابن خلدون ــ المصدر السابق ــ جـــ 6 ــ ص 238 ، ج، والقلقشندى ــ المصدر السابق ــ جـــ 5 ــ ص 283 .

[3] -أسكيا محمد : من أشهر ملوك دولة صنغاى أشتهر بمواهبه الإدارية والعسكرية ، وتقديره للعلماء كما زادت شهرته بعد رحلة الحج التي قام بها سنة " 903 هـــ / 1497 م " وقد ذكر الـــسعدى انـــه أنفق في هذه الرحلة ثلاثمائة ألف قطعة من الذهب " أنظر السعدى ــ المصدر الـــسابق ــ ص 72 " أنظر أيضاً " محمود كعت – المصر السابق – ص 59 ، وأنظر أيضاً – شاكر مصطفي ــ موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها ــ بيروت ــ دار العلم للملايين 1993 م ــ جـــ 2 ــ ص 967 " .

خصيصاً من طرابلس أمور تدريب بعض الفرق في جيش ادريس والإشراف عليها[1].

لقد رأينا أن قبائل البولالا كانت مصدر خطر دائم على حكام الكانم, وفي عهد ادريس ركز جهوده على استعادة الكانم من سيطرة البولالا, وبعد عدة حروب ضد أمير البولالا عبدالجليل[2] تمكن ادريس من الاستيلاء على إقليم كانم وإخضاع البولالا لسيطرته بعد أن عمل على كسب ود شيوخ القبائل العربية التي أقنعها بالتخلي عن البولالا والتحالف معه [3]

---

[1] -بوفيل ــ المرجع السابق – ص 364 .

[2]– لم تذكر لنا المصادر اسمه كاملاً حيث اكتفي ابن فرتوا بقوله عبدالجليل السلطان البولالي المناوئ ، وقد بدأت الحرب بينه وبين ادريس ألوما سنة 990هـ /1592م ، وانتهت هذه الحرب بانتصار إدريس وفرار عبدالجليل ، أنظر طرخان – المرجع السابق – ص 119

[3]- إبراهيم صالح ــ المرجع السابق ــ ص 47 .